لاتراقياتا البيروتية

بسّام كسّاب ❖

يستيقظ وسيم من نومه. يَنْده خادمَه راجيف، الذي يَدْخل بحذائه اللامع وبنطلونه الأسود المكويّ وقميصِه الأبيض ذي الكمّيْن المرفوعيْن والكاشفيْن عن ذراعيْن قاتمتي اللون ومكتسيتيْن بالشعر. على رأس راجيف التَصَقَ شعرٌ أسود خفيف تحت وطأة الـ «بريانتين »

ـ يا راجيف، هل من رسائل اليوم؟

ـ no، مستر وسيم.

ـ ناوِلْني الرسالةَ من على مكتبي، فأنا لا أقوى على النهوض من فراشي.

ما زالت الغرفة مظلمةً. تغطي الستارةُ الرمادية النافذةَ، لا بل تفيض من حولها. يَفْتح راجيف الستارةَ، فيَدخل النورُ إلى الغرفة الواسعة، مستكشفًا الجدرانَ العالية الخاليةَ من اللوحات، والشراشفَ الشديدةَ البياض، والوسائدَ المستُوفةَ على السرير تحت رأس وسيم

ـ لا، ليست هذه... بل أعطني الورقةَ الأخرى . الفاكس الذي أرسلتْه أُم شادي في أول الأسبوع

يأخذ وسيم الرسالةَ من يد راجيف، ويعيد قراءتَها للمرة العشرين يتأمّلها كأنّها تحفة فنية يَقْلبها على الوجه الآخر ليتأمّل الصفحة البيضاء. يضعها أمام وجهه مغطِّيًا النافذة المقابلة. يحاول أن يقرأ الكلمات المعكوسة مستعينًا بالضوء الذي اخترق زجاجَ النافذة ليستقرّ على الورقة. يستعجل القراءة قبل أن تمحو الأشعةُ الملونةُ حبرَ الكلمات السوداء.

تُطلّ نافذةُ الغرفة على شجرة ياسمين وثلاثِ شجراتٍ أخرى ذاتِ أوراق يابسة. تَفْصل حديقةُ وسيم الصغيرة بيتَه عن بناية الجيران المشرفة على شارع الحمراء. يتألف بيته من طابق واحد وجدران خارجية صفراء باهتة يعلوها سطحٌ قرميد أحمر. إنّه من البيوت القليلة في منطقة الحمراء الصامدة في وجه سرطان الأبنية التجارية الشاهقة، وقد وَرِثَه عن جدّته لأمه التي ربّته بعد مقتل والديْه بقذيفة اخترقتْ سقفيْن من الإسمنت، لكنّ بيت القرميد العتيق احتمى بالأبنية العالية ليتفادى حممَ طيران العدو الذي شنّ غضبَه على بيروت آنذاك كان وسيم طفلاً يصرخ فزعًا مع كلّ صوت انفجار وتحطيم زجاج، محتميًا بصدر جدته التي تتمتم الصلوات. طالما أحبّ وسيم جدتَه وقصصَها، وشاء القدر أن يبقى في بيتها بعد الاجتياح ليكبرا سويّاً.

ـ إنتَ كيف اليوم، مستر وسيم؟

ـ جسمي ضعيف، لكنّ معنوياتي عالية وروحي هادئة. فقد رأيتُ في الحلم رجلاً عجوزًا ملتحيًا ذقنًا سوداءَ، ومرتديًا ثوبًا طويلاً قاتمَ اللون، ويُشْبه كاهنَ رعية مار الياس. دخل إلى غرفتي ووقف بجانب السرير ليؤانسني، ثم مدّ يده ليأخذني معه. هدّأتْ زيارةُ العجوز لي من قلق الأمس؛ فالدِّين هو خيرُ أنيسٍ للمرضى.

ـ you are right مستر وسيم

ـ ساعدني يا راجيف لأرتدي ثيابي في حال وصول شادي اليوم

ـ yes مستر وسيم.

يقترب راجيف من سرير وسيم كوب الماء ما زال ملآنًا على الطاولة الصغيرة بجانب السرير إلى جانب الكوب توزّعتْ قواريرُ أدوية الزيدوفودين والساكينافير واللاميفودين والفورتوفاز والستافودين والنيفيرابين.

ـ آخ آخ! لا أقوى على النهوض. هل سأعيش لأرى شادي من جديد؟

ـ yes مستر وسيم... الحكيم قال إنّو مستر وسيم أحسن بكتير

❖ ـ كاتب من لبنان

ـ لا أصدِّق الأطباء. لا أشعر بأيّ تحسن.

ـ مستر شادي رح يجي، ومستر وسيم رح صير أحسن.

ـ آه يا راجيف، كلُّ ما أخبرتُكَ عن شادي في الماضي لا يفيه حقَّه. فهو يتميّز عن أيّ رجل عرفتُه قبلَه بقوّة شخصيّته وأخلاقه العالية. في المساء كان يستلقي هنا، على هذا السرير، ويضع رأسَه على صدري ويتركني ألعب بشعره حتى ينغلق جفناه على عينيه الخضراويْن. بسبب شادي اقتنعتُ بأنّ الحب ممكن، وأنّ الإخلاص لشريكٍ واحدٍ أمتعُ من التنقّل من رجلٍ إلى آخر.

ـ اليوم يجي، مستر شادي، أو يجي بُكْرا.

ـ نعم هذا ما كتبتْه أمُّه يا لسخرية القدر؛ فقد فَرَّقتْنا في الماضي، وها هي الآن تَسْعى إلى جمعنا!

يدندن وسيم موسيقى ڤيردي في رأسه، متمتمًا حوارًا من أوپرا «لا تراڤياتا».

جيرمونت: تنظرين إلى والد ألفريدو.

ڤيوليتا: أنتم، يا سيدي؟

جيرمونت: نعم، والد ذلك الشاب العنيد الذي يَرْكض نحو الهاوية لولعِه بكِ.

ڤيوليتا: الآن أحبُّ ألفريدو، وقد محا الله ماضيَّ وقَبِلَ توبتي.

جيرمونت: سأطلب تضحيةً من مشاعرك النبيلة.

ڤيوليتا: لا، باللهِ عليكَ، لا تقل شيئًا. ستَطْلب مني أمرًا فظيعًا. أشعر به... أتوقع قدومَه... لأنّ سعادتي كانت فوق الطبيعة.

جيرمونت: رزقني اللّهُ ابنةً طاهرةً كالملاك. وإذا ما رفض ألفريدو العودةَ إلى أحضان عائلته، فإنّ الرجل الذي تحبّه ويُفترض أن يتزوّج بها سيَفْسخ الرابطَ الذي يجعلهما سعيديْن.

❖ ❖ ❖

ما زال وسيم متقوقعًا في فراشه. وجهُه الضعيف وشعرُه البنّي الفاتح غارقان في وسائد الريش الناعم يغطي قميصُ نومٍ أبيضُ فضفاضٌ كتفيْه وذراعيْه أمّا يداه فمستلقيتان على الأغطية.

يُطرَقُ البابُ. يخرج راجيف من غرفة النوم ليفتحه، وإذ بشادي يدخل راكضًا ويتوقف أمام السرير. يمتدّ شعرُه الأجعد على كتفيه العريضتيْن. تَجْحظ عينا وسيم السوداوان ويصرخ «شادي،» فاتحًا ذراعيْه. يقفز شادي على السرير معانقًا وسيمًا ومقبِّلاً خدَّيْه وأنفَه وجبينَه وكلَّ وجهه. يحدِّق شادي للحظات في وجه وسيم وعينيه، ويعاود طَبْعَ القبلات على وجهه، فشعرِه وراحةِ يديْه ثم ينخطف الاثنان في قبلةٍ حارّة لدقائق طويلة وكأنّها أيامهُما الضائعة، ويذرفان خلالها الدموع

ـ وسيم، سامِحْني يا حبيبي لأنّي صدّقتُ أنّكَ تخونني مع ابن أسعد بك ورحلتَ إلى أميركا.

ـ أنت سامِحْني يا حياتي، فأنا مَنْ أوهمكَ بذلك.

ـ أخبرتني أمي بكلّ شيء. كانت تضحيتُك نبيلةً، لكنْ ليتَكَ لم تماشِها في خطتها

ـ ما مضى قد مضى. المهم أنّك اليومَ معي.

ـ أودّ أن أعوّضك كلَّ الوقت الضائع.

ـ وأنا حاضر وملْكُ يديك. ساعدْني على ارتداء ثيابي، ولنخرجْ للتنزُّه تحت أشعة الشمس.

ـ لكنّ هنالك لسعةَ بردٍ في الخارج قد لا يناسبك ذلك.

ـ سأرتدي معطفي. لا يهمّني البردُ على كلّ حال، فالدفء يملأ جسمي وقلبي لوجودك معي اليومَ. أحمد اللّه لمجيئك، وأنا ممتنّ لأمك لأنّها أرسلتكَ إليّ.

ـ إنّها تبعث بتحياتها إليك وتَطْلب منك السماح تصوّرْ أنّها قالت لي إنّي لم ولن أجد لا رجلاً ولا إمرأةً أنبلَ منك وأجدرَ بحبي، وإنّ عليّ أن أسرعَ بالعودة إلى بيروت لرؤيتك.

ترتسم بسمةٌ على شفتيّ وسيم، وتمرّ بسرعة في رأسه مقطوعةٌ من الفصل الأخير لتحفة ڤيردي:

جيرمونت: أتيتُ لأفي بوعدي لك وأضمّكِ إلى صدري كابنةٍ لي، أنتِ يا أكرمَ النساء.

ڤيوليتا: للأسف، وصلتَ متأخرًا يا سيدي! لكنّني ممتنةٌ لك على كل حال. الآن أموت محاطةً بالأشخاص الأعزّ إلى قلبي على هذه الأرض.

ألفريدو: لا، لا تموتي، لا تقولي ذلك... يجب أن تعيشي يا حبيبتي... اللّه لم يَقُدْني إلى هنا لمشاهدة مأساة رهيبة.

جيرمونت: عزيزتي، يا ضحيةً ساميةً لحبٍّ بلا أمل، سامحيني لما سبّبتُه لقلبك النبيل من عذاب.

❖ ❖ ❖

يتململ وسيم في فراشه ويقول لشادي:

ـ سأضع شيئًا عليّ ونخرج إلى حديقة الصنائع. أشعر بطاقةٍ غريبةٍ في داخلي. أشعر بالشفاء التامّ. أودّ التنزهَ وشمَّ رائحة أوراق الشجر المبللة والركض واللعب معك. هيّا بنا يا شادي.

يَنْفض وسيم الأغطيةَ عنه وينهض من فراشه. يخطو خطوةً نحو شادي ويفتح ذراعيْه ثم يخطو خطوةً ثانية، فيمدّ شادي يديْه لمعانقته. لكنّ وسيمًا يقع فجأةً على الأرض، فيلتصق وجهُه بالسجّادة الإيرانية المزركشة. يرمي شادي بركبتيه على الأرض وينحني بجسمه فوق ظهر وسيم وهو يَشْهق بالبكاء

تضرب موسيقى الأوركسترا الصاخبة عازفةً نوطات لا تراڤياتا الأخيرة. تُسدَلُ الستارةُ. تصفيقٌ حارّ. يصفّق المارةُ في شارع الحمراء على مقربة من نافذة غرفة وسيم. يخرج مغنّي الباريتون الذي يؤدّي دورَ جيرمونت من خلف الستارة. يصفّق المتنزّهون في حديقة الصنائع، ويصفّق الجمهورُ في قاعة الأوبرا في سان فرانسيسكو. يتبعه التينور ألفريدو وينحني تتوقّف السياراتُ حول ساحة الشهداء في وسط بيروت وتعلو الزمامير. ثم تظهر السوپرانو ڤيوليتا. تصفيق شديد. يقف الجمهور في دار الأوبرا دفعةً واحدة.

ـ براڤو .. براڤا... براڤو.

أَنْهض بدوري عن الكرسيّ المخملي الأحمر لأرى أبطال ڤيردي على الخشبة. ها هي ڤيوليتا، حيّةً ومتلألئةً بتسريحة شعرها الأشقر وقميصِ النوم الطويل من الساتان الأبيض. تنحني وينحني معها ألفريدو وجيرمونت

ـ براڤا . براڤو...

بيروت